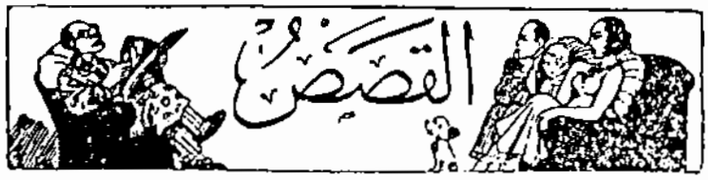

رجـــل وامرأة

للكاتب الفرنسي لوى هريبيو

« هذه ليست قصة بالمعنى المقصود منها ، ولكنها صورة صادقة من صورة الحياة المعقدة التي نجدها في كل بقعة من بقاع العالم وفي كل زمان من أزمنته »

(المترجم)

كان الدرج يؤدي إلى الفناء ، وقد جلست المرأة بأسفله تبكي وتنتحب طول الصباح . كانت في منتصف العقد الرابع من عمرها سمراء ممشوقة القد ضعيفة البنية ، وظلت تنشج بالبكاء ، وتتمتم بكلمات مبهمة كأنها تتوعد من حولها . وكم ذهب إليها الجيران يحاولون الترفيه عنها وإرشادها إلى عين العقل دون جدوى . كانوا يقولون لها : لا يصح أن تثوري كل هذه الثورة . من الأفضل لك أن تصعدي إلى شقتك . إنك ستصدعين رأسك ببكائك المتواصل . وهل يجدي البكاء ؟ » ولكنها كانت تجلس وكأنها لا تعي كلامهم . ما شأنهم في ذلك ؟ أليست هي حرة تفعل ما تشاء ؟ وصاحت في أعماق نفسها « لقد سئمت كل شيء »

وكانت أحياناً ترتكن برأسها على السور الحديدي للدرج تحاول النوم دون جدوى . ثم تخفي وجهها بين يديها وتبكي في حرارة ، فيسيل الدمع من بين أصابعها كما يسيل الماء من نبع لا ينضب . وتأوهت ، ثم انتابتها موجة من الصمت وهي تتلفت حولها بلا غاية . وأخيراً جلست دون حراك وقد ارتكن ذقنها على راحة يدها ، ومرفقها على ركبتها في ذلك الوضع الذي يفضله الرجل عندما يؤوب من عمله . أن هذا أول ناحية من نواحي انتقامها . لقد طافت بها الأفكار منذ أن بدأ الشجار إلى أن تحول هذا التحول على أية حال ، ليس لديها الآن إلا التفكير فيما قد حدث .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي لجأت فيها إلى الدرج . كم كان ذلك يغضبه أشد الغضب . ولكن ... أليس هذا ما تود هي ؟.. ولما ذا تود ؟.. لم تستطع الإجابة على هذا السؤال . لقد كان من المستحيل عليها أن تقوم بأي عمل آخر ، فالتجأت إلى الدرج . إنه بالطبع يستطيع أن يهددها بأن يعتدي عليها بالضرب . ولكنها كانت واثقة بأنه لن ينفذ تهديداته التي تصدر منه أثناء غضبه . فهما فعلت فإنه لن يهجرها أبداً . لعل هذا هو السبب في أنها تزداد ثوراً .

كان الناس يصعدون ويهبطون ويمرون أمامها ، فيلقون عليها نظرة إشفاق ، أو يرنون إليها في دهشة ، أو يهزون أكتافهم . وكانت تتظاهر بعدم رؤيتهم ، ولا تتحرك ، حتى لو اندفع شخص نحوها وتخطاها ، ولطم إحدى يديها ، أظلت ساكنة دون أن تتحرك . ولعلها كانت تود ذلك . قالوا لها إنه قد أزف الوقت لتعود إلى شقتها ، فلم تجب ، ولماذا تعود ؟ وهل جلست هنا لتجيب على مثل هذه الأسئلة ؟ وهل مكثت لتكون موضع شفقتهم ؟ .. كلا ... إن شفقتهم لا تعنيها في شيء . لقد جلست هنا ليشاهدوها ، وليعرفوا كيف أوصلها هو إلى هذه الحالة ، وأي نوع من الحياة تحياها ، وحتى يعرف هو الآخر أنهم قد شاهدوا وأدركوا حالها . نعم أن هذا هو ما ترغبه الآن ... على الأقل . أنه أول جزء من برنامج انتقامها . وكانت في كل مرة يتحدثون معها ، تجيبهم بإطلاق العنان لعبراتها وهي تحاول أن تجد موضعاً مريحاً تسند عليه « رأسها المسكين » بشعره المهوش الذي لم تهتم حتى بترتيبه .

كان الشجار قد بدأ مبكراً ، ولم تمر الساعة الثامنة إلا وكانت على الدرج . ولن تبرح مكانها فإنه لا يوجد ما يؤدي بها إلى التفكير في مبارحته . ها هو ذا الظهر قد أقبل ، وسيعود هو بعد لحظات . ما الذي سيقوله لها ؟ لعله سيحدث ما حدث في المرة السابقة ، فيمر عليها دون أن يعيرها انتباهه . ولكنه ان يظل وحيداً في الشقة أنه لم يحتمل هذه الوحدة — آخر مرة — أكثر من ربع ساعة ثم عاد يبحث عنها . ومما لا شك فيه أن ذلك سيحدث ثانية .

لقد تركها والغضب يعصف به ، وصفق الباب وهو يقسم أن هذه هي المرة الأخيرة ... المرة الأخيرة . أنه لا يستطيع احتمال

هذا السلك الجنوني . ولكنه سيجد عندما يصل إلى مقر عمله من فسيح ما يسمح له بالهدوء والتفكير في تؤدة .

وفتح باب الفناء ، وميزت وقع أقدامه . ولم تتحرك عضلة من عضلات جسمها ، وانقلب كل شيء فيها ساكناً ، وقد تركز كل كيانها في الاستماع إلى وقع خطواته ، وبدت كأنها لا تشعر بما يدور حولها . واقتربت الخطوات . سرعان ما ستراه . ولكنها ظلت دون حراك وقد ارتكن رأسها على سور الدرج . وأغمضت عينيها نصف إغماضة وهي تنتظر . وكاد أن يتعثر فوقها ، وعرته دهشة بالغة ، ثم تراجع وهو يحاول أن يستعيد رباطه جاشه وقد أغمض عينيه كان رجلا بدينا في الخامسة الرابعة من العمر ، يرتدي زي الكتبة ، وقد أمسك بمظلة .

وتمتم قائلا في صوت خال من الغضب — ما الذي تفعلينه هنا ؟ فلم تجبه وابتدأ القلق يساوره ، وغاض الدم من وجهه ، وارتجفت اليدان وهما تقبضان على المظلة . ثم اكتسحه شعور من الضعة لا نهائي وإحساس بالاحتقار لاحد له . ووقف دون حراك يجوا المدخل . كان الضوء يسقط عليه من الخارج ، فلم تستطع تمييز ملامحه . وظهر لها كأنه شبح بدين يحمل مظلة . ثم ردد في صوت خافت وكأنه يتحدث إلى طفل — ما الذي تفعلينه هنا ؟ فلم تجب . لا بد أنها مكثت هنا ساعات . وهز كتفيه . إذن لا توجد نهاية لذلك . وجعل يفكر في شجارهما هذا الصباح ، ويلوم نفسه ... ولكنه كان يأمل .

— أتعتزمين البقاء هنا ؟ فلم تجب . وكانت لهجته تنذر بانفجار بركان غضبه . وكان يلاحظ ما يختلج في نفسه من عواطف ثائرة ، ويعرف أن غضبه ينهكه ، فقال — هيا ... دعينا نصعد إنه لقباء ...

وولدت كلمة « القباء » في عينيه نظرة من الشراسة . وتنهد في حزن وقال : « يالها من حياة ! كل ذلك لأجل ماذا ؟ » وجعل يتفحصها بنظراته بأمعان . وكأنما عزم أن يعمل ما في وسعه ليحل المشكلة فهز رأسه بحنة ويسرة ثم قال — حسن ... ماذا ؟ ما الأمر ؟ ولم يكن هذا مايود أن يقوله ، ومع ذلك سيان عنده أقال ما قاله أو تفوه بشيء خلافه . وابتدأ يصعد الدرج . ولكنه سرعان ما استدار فجأة وصاح في صوت جفلت منه : « والطفلة ؟ »

وانحنى فوقها ، وشعرت بأنفاسه تهب على شعرها . الطفلة ؟ ! لم تكن قد أعارتها أدنى اهتمام . إن نسيانها الطفلة كان ولا شك جزءاً من انتقامها . ومع ذلك شعرت بالقلق يستحوذ عليها .

— ما الذي فعلته بالطفلة ؟

وخيل إليها أنه سيهم بضربها ، ولكنها كانت قد صممت على ألا ترد عليه . ثم شعرت برأسها يدور . إنها حقاً لم تهتم بالطفلة .

— أجيبي ! ها هو ذا قد انفلت منه زمام غضبه . ونزل الدرج ، ثم وقف أمامها ، وأسند مظلته على الحائط ، ومد يده تتلمس طريقها إلى وجهها التي تخفيه . ثم قال في صوت هادىء — متى ، متى ستكفين عن تعذيبي ؟ متى ... متى — أواه ، يا إلهي ؟ ...

كانت ثورة نفسه لا تحتمل . وعادت به الذاكرة فجأة إلى الليلة التي هربت فيها . تلك الليلة التي ظل يبحث عنها طويلا وهو يخشى أن تكون قد ألقت بنفسها في النهر ..

— تكلمي ! ووضع يده على ذقنها ، فلم تقاوم ، ورفع وجهها . وطغى على نفسه شعور من الشفقة ، فقال لها — لماذا أنت هكذا ؟ وابتدأت شفتاها ترتعشان ، وارتفع كتفاها ، وتمتمت بكلمات تعذر عليه سماعها فسألها — ماذا تقولين ؟ فأجابت — لا شيء .

وفجأة تغير كل شيء ، فقال — لاشيء حقاً ؟ إذن لماذا ؟ لماذا ؟ ألا تخبرينني بالله لماذا ؟ ما الذي تقصدينه بما حدث في الصباح ؟ وما الذي فعلته بالطفلة ؟ لقد كنت عازمة على ذلك منذ الصباح .

وهزها وهو يصيح بعد أن عصف به غضبه ، وقد كان يظن أنه ملك زمامه . إن هذه الانفجارات ، وهذه التأسفات : هذا التحول من الشفقة والحنان إلى القسوة والشراسة التي تصحب دائماً مشاجراتهما ، كانت كأنها تمثيل مسرحي . وكم كانت تهده هدأ وتستنفد قواه . ها هو ذا قد جرح شعورها ، فهبت واقفة ، تبتعد عنه وهي تصيح « أيها الوحش ! » .

وصاح صوت من أعلى الدرج قائلا — إن للطفلة معنا . لا داعي للقلق . سنعطيها غذاءها .

ولم يجب فى الحال على الرغم من شعوره بالطمأنينة . إن فكرة وجود جيرانه واقفين بأعلى الدرج يستمعون ويراقبون .

هدأت من غضبه . قالوا — ألا تسمع ؟

فصاح — لقد سمعت ... شكراً !

وبحركة آلية التقط مظلته وهو يتمتم قائلا — « لقد عيل صبرى ، عيل صبرى ! » فالتفتت إليه زوجه بوجه متقلص وعينين جامدتين وقالت فى صوت مختنق ورأسها يهتز « عيل صبرك ، عيل صبرك ، ممن ؟ » وكأنه قد عزم على الصمت ، فظل ساكناً لا يفوه بكلمة ..

— حسن ، إنى فى انتظار ردك .

فقال — لقد سئمت الشجار .

— هل هذا كل شىء ؟

— نعم .

— إذن ... هل أنا المسئولة عما حدث ؟

فقال فى تهكم — كلا ... إنه صبى الجزار !

ثم انفجر ضاحكا . كم كان جوابه مضحكا ! وسرعان ما تلاشى ضحكه عند ما قالت — ما ذا يهمك إذا كنت أتعذب ؟

فأجاب — ليس هناك ما يجعلنى أهتم ... فتنهدت وتمتمت قائلة — إنى أعرف ذلك ...

وران عليهما الصمت . هدوء مستمر . كان قد نسى تماماً أنهما لا يزالان على الدرج ، وأنه يشعر بالجوع وأنها لم تستعد بعد ... نعم ، لقد استسلمت نفسه مرة أخرى إلى سحر الشاجرة وسقط فى الشرك طواعية . وأنشأ يتحدث ويشرح لها كم هو تعس ، ويصف لها لواعج قلبه . وود لو استطاع أن يقنعها .

— ألا ترين ؟ ... إنها الغباوة أن يحدث ما حدث ... وكم هو مضيعة للوقت ! ألا تكفى مشاكل الحياة المعقدة ؟ .. إذن .. لماذا ؟ لماذا ؟ ... خبرينى ؟

ووضع يده على كتفيها وجذبها إليه قائلا — هل انتهينا من الشجار ؟

فوضعت خدها على خده وأخذت تبكى .

— كفى ... كفى لا تبكى . لقد انتهى النزاع .

إن هذا الهدوء والحنان ، وذلك الحديث عن الحب ، هو كل ما توده منه . لقد نسيت تماماً كل شىء عداها . وقالت — هنرى ... فربت على خدها قائلا — هيا نصعد ... لماذا نظل واقفين هنا ؟

فتبعته وهى تقول — أليس من الأفضل أن نستحضر الطفلة ؟

— دعيها ... من الأفضل تركها حيث هى الآن .

***

كانت الشقة على حالها منذ الصباح دون نظام أو ترتيب ، ولم تزل النوافذ مغلقة ، وروائح الليل تفوح فى الشقة المظلمة . وخلع قبعته وظل ممسكا بها لحظة ، وتملكته الحيرة ... أين يضعها ؟ وأخيراً ألقى بها والمظلة على مقعد . ثم وهو يراقبها تتوسط الترفة وقد تدلى ذراعاها « حسن ... حسن ... ماذا ؟ » .

وعبست عبوسة صبيانها ، كأنها على وشك البكاء مرة أخرى . ووضعت يديها على جبينها .

— لقد أصابك الصداع !

— نعم ، إنه مؤلم .

— ألم نلته بعد ؟

فبكت من قلبها وهى تقول — أواه ... نعم .

وأخذها بين ذراعيه وضمها إليه فى حنان . كان يود أن يظل ساكناً دون أن يفوه بكلمة . ولكنه أنشأ يتكلم مدفوعاً بنزوة لا تقاوم . فقال فى حنان — لماذا تفعلين ذلك ... لماذا ...

فقال — وأنت ؟

— أنا ؟ !

— نحن اثنان ... فإذا كانت هذه الهفوات من جانب واحد فقط .

— ولكنها ليست غلطة أحد منا ذلك هو السبب .

— السبب فى وجود الشجار ؟

— نعم ، ربما .

— على أية حال ، لقد انتهى الغضب .

فقالت فى لهفة : أوه ... نعم .

— أتستطيعين أن تذكرى ما الذى دار عليه الشجار هذا الصباح ؟ إنى لا أستطيع أن أتذكر . إنه لم يكن إلا كلمات ، كلمات تافهة . لقد نسيتها تماما ... تكفى مشاكل العالم المقبلة .

لقد كانت تعرف طريقته فى الجدال فقالت :

— لننس ما حدث !

وتراخت أذرعتهما ، وابتعد عنها . ثم تهالك جالساً على مقعد وقال وقد ابتدأ يعود إليه غيظه .

— انك امرأة لطيفة ... ألم تقرأى صحف الصباح ؟

يا له من سؤال ! لكأنها تهتم دائما بالصحف !

واستطرد يقول : بالطبع هناك مشاكل . إنى أقول الحقيقة .

— أعرف ذلك ...

فانفجر قائلا : حسن ، إذا كنت تعرفين ذلك جيدا ، فما الذى تعنيه من ... من مكوثك بهذا الشكل بالدرج تبكين على شىء لا يعلمه إلا الله ... ؟

— أوه ... اصمت .

ولكنه كان قد صمت قبل أن تتكلم ، وجعل يفكر فى كل ذلك وهو يتأملها . لقد كرهها ... حقا لقد كرهها . وأصبح يعافها ويشمئز من تهديداتها .

وسألها وهو يخرج ساعته من جيبه : ما الذى سنأكله ؟

ثم هز رأسه قائلا :

— لقد تأخر بنا الوقت .

فقالت : أستطيع تحضير بعض البيض والخضر أيكفى ذلك ؟

— نعم .

واختفت فى المطبخ ، وتمدد هو على الفراش ينتظر . ما الذى قاله لها هذا الصباح حتى أثارها وجعلها على تلك الحالة ؟ وجعل يفكر ويفكر دون أن يتذكر . وسمعها تقوم بإعداد الطعام بالمطبخ فناداها : مارسيل .

فأجابت وقد توقفت لحظة عن عملها : نعم .

— ما الذى قلته هذا الصباح حتى ... ؟

ولم تفه لحظة ثم قالت : لا شىء .

— بل هناك أشياء ... خبرينى !

— كلا ... وما الفائدة ؟

— فقال كنت أرغب ..

فقاطعته قائلة : ألا يستحسن عدم التحدث عن ذلك ؟

ولكنه ظل منتظراً . لماذا لا تريد أن تخبره ؟ وشعر بحب استطلاع غريب يدفعه عدم تذكره ما حدث .

— ألا تتذكرين يا مارسيل ؟

— أجل !

— حسن . إذن خبرينى !

— لماذا ! إنه من الغباء أن نعود إلى ترديد هذه النغمة ثانية .

وأدرك أنها لن تخبره أبداً ، فتمتم قائلا : حسن على أية حال .

نعم ، على أية حال ... من الأفضل ألا يتذكر . فهو مستاح إلى .. إلى هذه المعيشة ! !

محمد فتحى عبد الوهاب

أنور الجندى

يقدم للمثقفين والمفكرين والأدباء

الحركات الاصلاحية والانقلابية

فى الدعوة الإسلامية

التاريخ الإسلامى يكتب من جديد بروح من الإيمان والنزاهة

حركة معـــاوية	حركة صلاح والظاهر بيبرس
حركة عمر بن عبد العزيز	حركة ابن تين والوهـابين
حركة الرضا من آل محمد	حركة جمال ومحمد عبده
حركات الشـــيعة	حركة محـــمد على
حركات الفقهـاء	حركة السنوسى والمهدى
حركات الصـوفية	حركة ابن تومرت
حركات الخـــلافة	التتار والصـــليبيين
	مأســـاة الأندلس
	الاستعمار الغربى والصهيونية

١ — ... صحيفة من الحجم الكبير على ورق فاخر

٢ — الاشتراك ٣٠٠ ملم على ثلاثة أقساط والثمن بعد الطبع

٣ — القسط الأول (نوفمبر) والقسط الثانى (يناير) والقسط الثالث عند استلام الكتاب

ارسل الاشتراك باسمى بجريدة الإخوان المسلمين بالحلمية الجديدة بالقاهرة

سكك حديد الحكومة المصرية

تخفيض أجور السفر

ابتداء من أول نوفمبر سنة ١٩٤٨ أجرت المصلحة تخفيضاً محسوساً فى أجور السفر بالدرجات الثلاثة بين مصر ومحطات مديرية الفيوم وبنى سويف ومحطة الفيوم كما وتصرف بطاقات (كارنيهات) لعشرة سفريات مفردة بأجور مخفضة بين باب اللوق والمعادى وبين بور توفيق والأربعين .

عربات الديزل الجديدة

ينتظر وصول قاطرات قوية جديدة فى أواخر هذا الشهر وستبدأ المصلحة تسييرها على خطوطها الرئيسية بحيث تقطع المسافات فى زمن أقل مما تستغرقه القطارات الحالية .

مطبعة الرسالة